

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥ - سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قال المصنّف : سميت به لأنها مملوءة بذكر الآلاء الجميلة ، وهي راجعة إلى هذا الاسم .
وهي مكية ، على قول ابن عباس . وآيها ثمان وسبعون .
وقد روى الإمام أحمد أن أول مفصل ابن مسعود ، كان الرحمن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرَّحْمَنُ)

[٢] (عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

« الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى بصّر به ما فيه رضاء، وما فيه سخطه، برحمته ليظاع باتباع ما يرضيه، وعمل ما أمر به، وباجتناب ما نهى عنه، وأوعد عليه، فينال جزيل ثوابه، وينجى من أليم عقابه .

قال القاضى : لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية ، صدرها بـ (الرحمن) وقدم ما هو أصل النعم الدينية وأجلّها ، وهو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه ، فإنه أساس الدين ، ومنشأ الشرع ، وأعظم الوحي ، وأعز الكتب ، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها ، مصدق لنفسه ، ومصدق لها .

ثم أتبعه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

[٤] (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » إيماء بأن خلق البشر ، وما تميز به عن سائر الحيوان من البيان - وهو التعبير عما فى الضمير ، وإفهام الغير - لما أدركه لتلقى الوحي ، وتعرف الحق ، وتعلم الشرع . أى فإذا كان خلقهم إنما هو فى الحقيقة لذلك ، اقتضى اتصاله بالقرآن ، وتنزيله الذى هو منبعه ، وأساس بنيانه .

قال الزمخشري : وإخلاؤها من العاطف لمحيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ؟ وهذا - كما قال الشهاب - مصحح . والمرجح الإشارة إلى أن كلامها نعمة مستقلة تقتضي الشكر . ففيه إيحاء إلى تقصيرهم في أدائه . ولو عطف مع شدة اتصالها وتناسبها ، ربما توهم أنها كلها نعمة واحدة .

وقال الأصفهاني في (الذريعة) : لما كان للنطق أشرف ما خص به الإنسان ، فإن صورته المعقولة التي بها باين سائر الحيوان . قال عز وجل (خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) ولم يقل (وعلمه) إذ جعل قوله (عَلَّمَهُ) تفسيراً لقوله (خَلَقَ الْإِنْسَانَ) تنبيهاً أن خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعاً لكانت الإنسانية مرفقة ، ولذلك قيل : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . وقيل : المرء مخبوء تحت لسانه . قال الشاعر (١) :

لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم .
أى إذا توهم ارتفاع النطق الذي هو باللسان ، والقوة الناطقة التي هي بالفؤاد ، لم يبق إلا صورة اللحم والدم . فإذا كان الإنسان هو اللسان فلا شك أن من كان أكثر منه حظاً كان أكثر منه إنسانية . والصمت من حيث ما هو صمت مذموم ؛ فذلك من صفات الجمادات ، فضلاً عن الحيوانات . وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات بلا صوت ، وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب . ومن مدح الصمت ، فاعتباراً بمن يسىء في الكلام ، فيقع منه جنایات عظيمة في أمور الدين والدنيا . فإذا ما اعتبرا بأنفسهما ، فحال أن يقال في الصمت فضل ، فضلاً أن يخار بينهما وبين النطق . وسئل حكيم عن فضلها فقال : الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق

(١) هو زهير بن أبي سلمى ، من معلقته التي مطلعها :

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوَّانَةَ الدَّرَاجِ فَأَلْمُتْهُمْ

وسئل آخر عن فضلهما فقال : الصمت عن الحما ، أفضل من الكلام بالخطا . وعنه أخذ الشاعر :

الصَّمْتُ أَلْيَقُ بِالْفَتَى مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ حِمْنِهِ

انتهى . وقد جوز - كما حكاه الشهاب - أن يكون (الرَّحْمَنُ) خبر محذوف ، أى الله الرحمن ، وما بعده مستأنف لتعدد نعمه . ثم قال : و (عَلَّمَ) من التعليم ، ومفعوله مقدر . أى علم الإنسان ، لا جبريل أو محمداً عليهما الصلاة والسلام . وليس (من العلامة من غير تقدير) كما قيل . أى جملة علامة وآية لمن اعتبر - لبعده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[٦] (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

[٧] (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

« الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » أى يجران بحساب معلوم مقدر فى بروجهما ومنازلهما ، به تنسق أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم السفن والحساب . « وَالنَّجْمُ » أى النبات الذى ينجم ، أى يطلع من الأرض ولا ساق له . « وَالشَّجَرُ » أى الذى له ساق « يَسْجُدَانِ » أى يفقادان لله فيما يريد بهما طبعاً ، انقياد الساجد من المكلفين طوعاً . فهو استعارة مصرحة تبعية . شبه جريهما على مقتضى طبيعته ، بانقياد الساجد لخالقه والجملة - إن كانت خبراً عن الرحمن لعطفها على الخبر - فالرابط محذوف لوضوحه ، أى بحسبانه ويسجدان له . أو مستأنفة ، فالقطع لأنها مسوقة لفرض آخر . وإدخال العاطف بينهما ، لما أن الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان ، فبينهما مناسبة بالتقابل ، وبانقياد الكل لإرادته . « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا » أى خلقها مرفوعة . « وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » أى العدل بين خلقه فى الأرض .

قال القاشاني : أى خفض ميزان العدل إلى أرض النفس والبدن ، فإن العدالة هيئة نفسانية ، لولاها لما حصلت الفضيلة الإنسانية . ومنه الاعتدال فى البدن الذى لو لم يكن ، لما وجد ، ولم يبق . ولما استقام أمر الدين والدنيا بالعدل ، واستتبّ كمال النفس والبدن به ، بحيث لولا هـ لفسد - أمر بمراعاته ومحافظته قبل تعديد الأصول بتمامها ، لشدة العناية به ، وفرط الاهتمام بأمره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

[٩] (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

« أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ » أى بالإفراط عن حدّ الفضيلة والاعتدال ، فيلزم الجور الموجب للفساد . و (أَنْ) مصدرية على تقدير الجار . أى لئلا تطفخوا فيه ، أو مفسرة لما فى وضع الميزان من معنى القول ، لأنه بالوحى ، وإعلام الرسل . « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » أى بالاستقامة فى الطريقة ، وملازمة حدّ الفضيلة ، ونقطة الاعتدال فى جميع الأمور ، وكل القوى . « وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » قال القاشاني : أى بالتفريط عن حدّ الفضيلة .

قال بعض الحكماء : العدل ميزان الله تعالى ، وضعه للخلق ، ونصبه للحق . انتهى . ومن فسر (الْمِيزَانَ) فى الآية بالعدل ، مجاهد ، وتبعه ابن جرير ، وكذا ابن كثير ، ونظر لذلك بآية^(١) (أَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) . وجوز أن يراد بالميزان ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوها . ومنه قال السيوطى فى (الإكليل) : فيه وجوب العدل فى الوزن ، وتحريم البخس فيه . وعليه ، فوجه اتصال قوله (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) بما قبله ، هو أنه لما وصف السماء

بالرفعة التي هي مصدر القضايا والأقدار ، أراد وصف الأرض بما فيها ، مما يظهر به التفاوت ، ويعرف به المقدار ، ويسوّى به الحقوق والمواجب - كذا ارتآه القاضي - والله أعلم .
وفي الحقيقة ، الثاني من أفراد الأول ، وأخذ اللفظ عامّاً أولى وأفيد .
ومن اللطائف التي يتسع لها نظم الآية الكريمة قول الرازي : (أَلْمِيزَانُ) ذكر ثلاث مرات ، كل مرة بمعنى . فالأول : هو الآلة . والثاني : بمعنى المصدر . والثالث : للمفعول .
قال : وهو كالقرآن ، ذكر بمعنى المصدر في قوله تعالى ^(١) (فَأَتَّبِعْ قُرْءَانَهُ) ؛ وبمعنى المقروء في قوله ^(٢) (إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْءَانُهُ) ؛ وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى ^(٣) (وَلَوْ أَنْ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) ، فكأنه آله وحمل له ؛ وفي قوله تعالى ^(٤) (أَأَنْتُمْ أَنْتُمْ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانُ الْعَظِيمُ) . ثم قال : وبين القرآن والميزان مناسبة ، فإن القرآن فيه من العلم ما لا يوجد في غيره من الكتب . والميزان فيه من العدل ما لا يوجد في غيره من الآلات . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

[١١] (فِيهَا فُكِّهَتْهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)

[١٢] (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

[١٣] (فَبَآئِيَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » أي مهّدها للخلق « فِيهَا فُكِّهَتْهُ » أي صنوف مما يتفكّكه به « وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ » أي أوعية الطلع ، وهو الذي يطالع فيه العنقود ،

(١) [٧٥ / القيامة / ١٨] . (٢) [٧٥ / القيامة / ١٧] .

(٣) [١٣ / الرعد / ٣١] . (٤) [١٥ / الحجر / ٨٧] .

ثم ينشقّ عن العقود فيكون بُسراً ، ثم رطباً . ثم ينضج ويتناهى نفعه واستواؤه . وإنما أفردا بالذكر ، لما فيها من الفوائد العظيمة ، على ما عرف من اتخاذ الظروف منها ، والانتفاع بجمارها وبالطلع والبسر والرطب وغير ذلك . فثمرتها في أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة ، فهي أتم نعمة بالنسبة إلى غيرها من الأشجار ، فلذا ذكر النخل باسمه ، وذكر الفاكهة دون أشجارها ، فإن فوائده أشجارها في عين ثمارها . « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ » أى وفيها الحب . وهو حَبُّ الْبُرِّ والشعير ونحوها (ذُو الْعَصْفِ) أى الورق اليابس كالتبن . « وَالرَّيْحَانُ » أى الورق الأخضر . تذكير بالنعمة به وبورقه في حالته . هذا على (قراءة) (الریحان) بالجر . وقرئ بالرفع ، وهو الزرع الأخضر مطلقاً ، سمي به تشبيهاً له بما فيه الروح ، لأن حياته النباتية في نضرة خضرته .

قال ابن عباس : الریحان خضر الزرع .

وقال القرطبي : الریحان ، إمافيعلان ، من (روح) ، فقلبت الواو ياء ، وأدغم ثم خفف ، أو فعلان ، قلبت واوه ياء للتخفيف ، أو للفرق بينه وبين الروحان ، وهو ماله روح . « فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ » قال أبو السعود : الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى ^(١) (لِلْأَنَامِ) ، وسينطق به قوله تعالى ^(٢) (أَيُّهُ الثَّقَلَانِ) . والفاء لترتيب الإنكار ، والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء ، وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتماً . والتعريض لعنوان الربوبية المنبثقة عن المالكية السككية والترابية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ . ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى ، كفرهم بها ، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه ، كتعليم القرآن ، وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإما بإنكار كونه من الله تعالى ، مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه ، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالاً ، أو اشتراكاً صريحاً ، أو دلالة ، فإن إشرافهم لآلهتهم به تعالى في العبادة

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٠] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣١] .

من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها . والتمبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب ، لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر ، شهادة منها بذلك . فكفرهم تكذيبها لاحالة . أى فإذا كان الأمر كما فصل ، فبأى فرد من أفراد آلاء مالكم كما ومربيكم بتلك الآلاء تكذبان ، مع أن كلاً منها ناطق بالحق ، شاهد بالصدق . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ)

[١٥] (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ)

[١٦] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ » قال أبو السعود: تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتى كل واحد من الثقلين . و (الصلصال) الطين اليابس الذى له صلصلة . و (الفخار) الخزف . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جملة طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصلاً . فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدهما ، وبين ما نطق به بأحد الآخرين . « وَخَلَقَ الْجَانَّ » أى الجن ، أو أبا الجن ، « مِنْ مَّارِجٍ » أى لهب صاف « مِنْ نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما أفاض عليكم فى تضاعيف خلقكم من سوابغ النعم . ومما أظهره لكم بالقرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

[١٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » أى مشرق الشتاء والصيف ومغربيهما أو مشرق الشمس والقمر ومغربيهما « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما فيهما من النعم

والقوائد التي لا تحصى ، كاختلاف الفصول ، وحدث ما يناسب كل فصل فيه من الخيرات والبركات التي بها قوام العالم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)

[٢٠] (يَبْتَغِيَانِ بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)

[٢١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أرسلهما ، من (مَرَجَ فلان دابته) إذا خلّاها وتركها . والمعنى : أرسل وأجرى البحر الملح ، والبحر العذب « يَلْتَقِيَانِ » أى يتجاوران « يَبْتَغِيَانِ » بَرْزَخٌ « أى حاجز من قدرة الله تعالى وبديع صنعه « لَا يَبْغِيَانِ » أى لا يبغي أحدهما على الآخر بالمزجة ، وإبطال الخاصية .

قال الشهاب : يعنى أنهما إذا دخل أحدهما فى الآخر، قد يجرى فيه فراسخ، ولا يتلاشى ويضمحل ، حتى يغير أحدهما طعم الآخر ولونه ، كما نشاهده .

وقيل : المراد بحرى فارس والروم ، فإنهما يلتقيان فى البحر المحيط ، وبينهما برزخ من الأرض ، لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما - وهو مروي عن قتادة والحسن - قال الشهاب : لكنه أورد عليه أنه لا يوافق قوله تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ...) الآية ^(١) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

واختار ابن جرير ^(٢) ما روى عن ابن عباس وغيره؛ أنه عنى به ببحر السماء وبحر الأرض . وذلك أن الله قال ^(٣) (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أسداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء . معلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء . انتهى .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

وفيه ما في الذي قبله من عدم موافقته لتلك الآية . والأصل في الآي التشابه .
زاد ابن كثير : أن ما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً ، وحجراً محجوراً . فالأولى
هو الأول . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما في البحرين وخلقهما من الفوائد ،
وقد أشار إلى بعضها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

[٢٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » أي كبار الدر وصغاره . أو (المرجان) الخرز
الأحمر المعروف . وإنما قيل (مِنْهُمَا) مع أنه يخرج من أحدها ، وهو الملح ، لأنه لا متزاجهما
يكون خارجاً منهما حقيقة ، أو أنه نسب لهما ما هو لأحدهما ، كما يسند إلى الجماعة ما صدر
من واحد منهم . قال الناصر : وهذا هو الصواب . ومثله ^(١) (لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ
عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ) وإنما أريد إحدى القريتين . وكما يقال : هو من أهل مصر ،
وإنما هو من محلة منها . انتهى .

قال الشهاب : ولا يخفى أن هذا ، وإن اشتهر ، خلاف الظاهر . فإما أن يكون ضمير
(مِنْهُمَا) لبحري فارس والروم ، أو يقال معنى خروجه منهما ليس أنه متسكون فيهما ،
بل أنهما يحصلان في جانب من البحار انصبّت إليها المياه العذبة . انتهى . والخطب سهل .
ولما كان خروج هذين الصنفين نعمة على الناس ، لتحليتهم بهما ، كما تشير له آية ^(٢)
(وَمِنْ كُلِّ ثَمَرٍ نَّكَوْنُ لَهُمْ طَرِيقًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) قال سبحانه « فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله تعالى :

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

[٢٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلَهُ الْجَوَارِ » يعنى السفن ، جمع جارية « الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ » قرئ بكسر الشين ، بمعنى الظاهرات السير اللاتي تقبلن وتدبرن . وبفتحها بمعنى المرفوعات القلاع اللاتي تقبل بهن وتدبر . و (الأعلام) جمع علم ، وهو الجبل الطويل . ولما كانت من أعظم الأسباب للمتاجر والمكاسب المقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، قال تعالى « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى نعمه التي أنعم بها في هذه الجوارى .

قال القاضى : أى من خلق موادها ، والإرشاد إلى أخذها ، وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

[٢٧] (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[٢٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » أى : من على ظهر الأرض هالك « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » أى ذاته الكريمة « ذُو الْجَلَالِ » أى العظمة والعلو والكبرياء « وَالْإِكْرَامِ » أى التفضل العام ، وهذه الآية كآية^(١) (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) .

(١) [٢٨ / القصص / ٨٨] .

ولما كان فناء الخلق سبباً لبعثهم للنشأة الأخرى التي يظهر بها الحق من المبطل، وينقلب الأول بالثواب ، ويوئد الآخر بالعقاب ، وذلك من أعظم النعم التي يشمل فيها المدل الإلهي المسكفين - قال سبحانه « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

وقد أشار الرازي إلى ما في قوله تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) من الفوائد ، بقوله :
فيه فوائد :

منها - الحث على العبادة ، وصرف الزمان اليسير إل الطاعة .

ومنها - المنع من الوثوق بما يكون للمرء . فلا يقول - إذا كان في نعمة - إنها لن تذهب فيترك الرجوع إلى الله ، معتمداً على ماله وملسكه .

ومنها - الأمر بالصبر إن كان في ضرر ، فلا يكفر بالله معتمداً على أن الأمر ذاهب ، والضرر زائل .

ومنها - ترك اتخاذ الغير معبوداً ، والزجر عن الاغترار بالقرب من الملوك ، وترك التقرب إلى الله تعالى . فإن أمرهم إلى الزوال قريب .

ومنها - حسن التوحيد، وترك الشرك الظاهر والخفي جميعاً، لأن الفاني لا يصاح لأن يعبد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

[٣٠] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي يدعونه ويرغبون إليه ، ويرجون رحمته لفرغم الذنات ، وغناه المطلق . « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » أي كل وقت يحدث أموراً ، ويجدد أحوالاً .

قال مجاهد : يعطى سائلاً ، ويفك عانياً ، ويجيب داعياً ، ويشفي سقيماً .

وروى ابن جرير^(١) أن النبي ﷺ تلا هذه الآية . فقيل : يا رسول الله ! وما ذاك الشأن قال : يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين .

وقال الفاشاني : المراد يسأله كل شيء ، فغاب العقلاء ، وأتى بالفظ (مَنْ) أى كل شيء . يسأله بلسان الاستعداد والافتقار دائماً (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) بإفاضة ما يناسب كل استعداد ويستحقه ، فله كل وقت في كل خلق شأن ، بإفاضة ما يستحقه ويستأهله باستعداد . فمن استعد بالتصفية والتزكية للكمالات الخيرية والأنوار ، يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . ومن استعد بتكدير جوهر نفسه بالهيئات المظلمة والردائل ، ولوث العقائد الفاسدة ، والخبائث ، للشروع والمكاره ، وأنواع الآلام والمصائب والعذاب والوبال : يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . انتهى .

وقد أخذ الآية عامة من حيث السائلون خاصة بلسان الاستعداد وغيره - كإن كثير والقاضي - رآها خاصة بمن يعقل ، عامة بلسان الحال أو المقال . والأقرب هو ما يتبادر بآدى بدء إلى الفهم ، وهو ما ذكرناه أولاً « فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما يسمف به سؤالكما ، ويخرج لكما من مخبأ قدره وخلقه آناً فأناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (سَفَرُغْ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ)

[٣٢] (فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« سَفَرُغْ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ » قال القرطبي : يقال : فرغت من الشغل أفرغ فراغاً وفروغاً . وفرغت لكذا واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه . وإنما المعنى : سنة قصد لجوازكم أو محاسبتكم ، فهو وعيد لهم وتهديد ، كقول القائل لمن يريد تهديده : إذا أفرغ لك ، أى أقصدك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السابع والمشرى (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال الزجاج : الفراغ في اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه ، كما هنا . وهو تهديد ووعيد . تقول : قد فرغت مما كنت فيه ، أى قد زال شغلي به . وتقول : سأفرغ لفلان ، أى سأجعله قصدى . فهو على سبيل التمثيل . شبه تديره تعالى أمر الآخرة ، من الأخذ في الجزاء ، وإيصال الثواب والعقاب إلى المكلفين ، بعد تديره تعالى لأمر الدنيا بالأمر والنهي ، والإماتة والإحياء ، والمنع والإعطاء ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن - بحال من إذا كان في شغل يشغله عن شغل آخر ، إذا فرغ من ذلك الشغل ، شرع في آخر . وجازت الاستعارة التصريحية أيضاً . وقد ألم به صاحب (المفتاح) حيث قال : الفراغ الخلاص عن المهام . والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، وقع مستعمراً للأخذ في الجزاء وحده .

لطيفة :

رسم (أَيْهَ) بغير ألف . وأما في النطق فقرأ أبو عمرو والكسائي (أيها) بالالف في الوقف ، ووقف الباقر على الرسم (أيه) بتسكين الهاء ، وفي الوصل قرأ ابن عامر (أَيْهَ) برفع الهاء ، والباقر بنصبها .

و (الثقلان) تثنية (ثَقُلَ) بفتح حين ، فَعَلَ بمعنى مفعول ، لأنهما أثقلا الأرض ، أو بمعنى مفعول ، لأنهما أثقلا بالتكاليف . وقال الحسن : لثقلهما بالذنوب .

والخطاب في (لكم) قيل للمجرمين ، لكن ياباه قوله (أَيْهَ الثَّقَلَانِ) نعم ! المقصود بالتهديد هم . ولا مانع من تهديد الجميع - كما أفاده الشهاب - ولا يفهم من هذا أن اللفظ الكريم وعيد بحت ، بل هو حامل للوعد أيضاً ، لأن المعنى : سنفرغ لحسابكم ، فنثيب أهل الطاعة ، ونعاقب العصاة ، وهو جلي . ولذا اعتد ذلك نعمة عليهم بقوله « فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رَبِّكَمَّا تُكَدِّبُونَ » أى من ثوابه أهل طاعته ، وعقابه أهل معصيته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أُسْتَطْعِمَ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)
[٣٤] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أُسْتَطْعِمَ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »
أى تجوزوا أطراف السموات والأرض فتمجروا ربكم ، أى بخروجكم عن قهره ومحل سلطانه
ومملكته حتى لا يقدر عليكم « فَأَنْفُذُوا » أى فجوزوا واخرجوا (لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)
أى بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ؟ ونحوه ^(١) (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ) ويقال : معنى الآية : إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والأرض فاعلموه ،
وان تعلموه إلا بسلطان ، يعنى : البينة من الله تعالى . والأول أظهر ، لأنه لما ذكر فى
الآية الأولى أنه لا محالة مجاز للعباد ، عقبه بقوله (إِنْ أُسْتَطْعِمَ . . .) الخ ، لبيان أنهم
لا يقدرّون على الخلاص من جزائه وعقابه ، إذا أَرَادَهُ . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ »
قال ابن جرير ^(٢) : أى من التسوية بين جميعكم ، بأن جميعكم لا يقدرّون على خلاف
أمر أَرَادَهُ بكم .

وقال القاضى : أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والمفوّ مع كمال القدرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ)
[٣٦] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ » أى من لهب « مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ » أى صُفْر مذاب يصبّ

(١) [٢٩ / المنكبوت / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

على رؤوسهم « فَلَا تَنْتَصِرَانِ » أى تمتنعان وتنفذان منه . يعنى : إذا أصررتما على الكفر والطغيان وعصيان الرسول ، فما أمامكم فى الآخرة إلا هذا العذاب الأليم .
وقد ذهب ابن كثير إلى أن هذه الآية وما قبلها ، مما يخاطب به الكفرة فى الآخرة ، وعبارته :

هذا فى مقام الحشر ، والملائكة عذقة بالخلائق ، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسطان ،
أى بأمر الله ^(١) (يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) وقال تعالى ^(٢) (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَانَمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ولهذا قال تعالى (يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِلٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ) والمعنى لو ذهبتم هارين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال الله من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا . انتهى .

ثم رأيت قد سبقه إلى ذلك ، الإمام ابن القيم رحمه الله ، فقد قال رحمه الله فى أواخر كتابه (طريق الهجرتين) فى تفسير هذه الآية ، بعد أن ذكر نحو ما قدمنا من الوجهين فى تأويل قوله تعالى (إِنْ أَسْتَعْطَمْتُمْ أَنْ تَنْفَعُوا) مأمثاله :

وفى الآية تقرير آخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب فى الآخرة ، إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض ، وأحاط سرادق النار بالآفاق ، فهرب الخلائق ، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً ، كما قال تعالى ^(٣) (وَيَقُولُونَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مُدْبِرِينَ) قال مجاهد : فآرين غير معجزين . وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار نذوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المسكن الذى كانوا فيه ، فذلك

(١) [٧٥ / القيامة / ١٠ - ١٢] . (٢) [١٠ / يونس / ٢٧] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٣٢ و ٣٣] .

قوله ^(١) (وَأَلَمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِيهَا) وقوله ^(٢) (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ ..) الآية. وهذا القول أظهر - والله أعلم - فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين ، يقال لهم : (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتمجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم ، فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول ، فإن قبلها (سَنَفْرُغُ لَكُمْ ...) الآية ، وهذا فى الآخرة ، وبعدها ^(٣) (فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ ...) الآية ، وهذا فى الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس. والجن فإنه أتى فيه بصيغة العموم ، وهى قوله (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ) فلا بد أن يشترك الكل فى سماع هذا الخطاب ومضمونه ، وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر. وقال تعالى (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ) ولم يقل : إن استطعتم ، لإرادة الجماعة ، كما فى آية أخرى ^(٤) (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ) وقال ^(٥) (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا) ولم يقل : يرسل عليكم ، لإرادة الصنفين ، أى لا يختص به صنف عن صنف ، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً . وهذا ، وإن كان مراداً بقوله ^(٦) (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ) لخطاب الجماعة فى ذلك بلفظ الجمع أحسن . أى من استطاع منكم . وحسن الخطاب بالتثنية فى قوله (عَلَيْكُمَا) أمر آخر ، وهو موافقة رؤوس الآى ، فاتصت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين فى العذاب بالتنصيص عليهما ، فلا يحتمل اللفظ لإرادة أحدهما - والله أعلم - انتهى كلام ابن القيم .

وأنت ترى أن لاقربنة تخصص الآية بالقيامة ، وما استشهد به من الآيات لا يؤيده ، لأنه ليس من نظائره . فالوجه ما ذكرناه .

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| (١) [٦٩ / الحاقة / ١٧] . | (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] . |
| (٣) [٥٥ / الرحمن / ٣٧] . | (٤) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . |
| (٥) [٥٥ / الرحمن / ٣٥] . | (٦) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] . |

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال القاضي : فإن التهديد لطف ، والتميز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار ، من عداد الآلاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

[٣٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ » أى انقطرت فاختل نظامها العلوى « فَكَانَتْ وَرْدَةً » أى كلون الورد الأحمر « كَالدِّهَانِ » أى كالدهن الذى هو الزيت ، كما قال ^(١) (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ) وهو دردى الزيت ، يعنى فى لونه السكدر وذوبانه ، لصيرورتها إلى الفناء والزوال . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما يحله بكم بعد ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

[٤٠] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » أى لا يفتح له باب المذرة ، كقوله ^(٢) (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فى السؤال مجاز عن نفي سماع الاعتذار . فهو من باب نفي السبب لانتفاء المسبب . وأخذ كثير السؤال على حقيقته ، وحاولوا الجمع بينه وبين ما قد ينافيه .

قال القاشانى : وأما الوقف والسؤال المشار إليه فى قوله ^(٣) (وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) ونظائره ، فى مواطن آخر من اليوم الطويل الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، وقد يكون هذا الوطن قبل الوطن الأول فى ذلك اليوم ، وقد يكون بعده .

(١) [٧٠ / المارج / ٨] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ٣٦] . (٣) [٣٧ / الصافات / ٢٤] .

وكذا قال ابن كثير: إن هذه الآية كقوله^(١) تعالى (هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فهذا في حال . وثمّ حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال تعالى^(٢) (فَوَرِّبَكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ كَانُوا يَمْعَلُونَ) وفي الآية تأويل آخر . قال مجاهد: لا يسأل الملائكة عن المجرم ، يعرفون بسيماهم .

وقال الإمام ابن القيم في (طريق المجرتين) اختلف في هذا السؤال المنقّى ، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف ، لا يسألون حينئذ ، ويسألون بعد إطالة الوقوف ، واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ، ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل المنقّى سؤال الاستعلام والاستخبار ، لا سؤال الحاسبة والمجازاة . أى قد علم الله ذنوبهم ، فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها ، وإنما يحاسبهم عليها . انتهى .

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير^(٣) : أى من عدله فيكم أنه لم يعاقب منكم إلا مجرمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَفْئَامِ)

[٤٢] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٤٣] (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)

[٤٤] (يَطُوفُونَ يَنْتَهَا وَبَيْنَ حِمِيمٍ إِنْ)

[٤٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ » أى بما يعلوهم من الكتابة والحزن والذلة . وقيل :

(١) [٧٧ / الرسائل / ٣٦ و ٣٥] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بسواد الوجوه ، وزرقة العيون « فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ » أى فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم ، فنسحبهم إلى جهنم ، وتقذفهم فيها . والباء للآلة ، كأخذت بالخطام ، أو للتعديدية . و (الناصية) مقدم الرأس . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير^(١) : أى من تعريفه ملائكته ، أهل الإجمام من أهل الطاعة منكم ، حتى خصوا بالإذلال والإهانة ، المجرمين دون غيرهم « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَتُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ » أى ماء حار « ءَانِ » أى انتهى حره ، واشتد غليانه . وكل شئ قد أدرك وبلغ فقد أتى . ومنه قوله^(٢) (غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ) يعنى إدراكه وبلوغه « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من عقوبته أهل الكفر به ، وتكريمه أهل الإيمان به . ثم تأثر ما عدد عليهم من الآلاء الدينية ، والدينية بتعداد ما أفاض عليهم فى الآخرة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ)

[٤٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٤٨] (ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

[٤٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٠] (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

[٥١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٢] (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

- [٥٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٥٤] (مُسْكِينٍ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)
 [٥٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٥٦] (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ)
 [٥٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٥٨] (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)
 [٥٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » أى قيامه عند ربه للحساب ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه . فإضافته للرب لأنه عهده ، فهو كقول العرب : ناقة رقاد الحلب ، أى رقاد عند الحلب . أو موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب ، فإضافته للرب لامية لاختصاص الملك يومئذ به تعالى . أو هو كناية عن خوف الرب ، وإثبات خوفه له بطريق برهاني بليغ ، لأن من حصل له الخوف من مكان أحد ، يهابه وإن لم يكن فيه ، نخوفه منه بالطريق الأولى . وهذا كما يقول المترسلون : المقام العالى ، والمجلس السامى « جَنَّتَانِ » أى جنة لمن أطاع من الإنس ، وجنة لمن أطاع من الجن . أو هو كناية عن مضاعفة الثواب ، وإيثار التثنية للفاصلة « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى بإثابته المحسن ما وصف « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » أى أنواع من الأشجار والثمار . جمع (فن) بمعنى النوع ، أو أغصان لينة ، جمع (فنن) وهو ماذق ولان من الغصن « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عِمَتَانِ نَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو ما غلظ من الديباج .

نبه على شرف الظهارة ، بشرف البطانة ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

قال ابن مسعود : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ !
 « وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ » أى وثمرها المجنى داني القطوف « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَهِنُ قَسِيرَاتُ الْطَّرْفِ » أى منكسرات الجفن ، خافضات الفطر ، غير متطلعات لما بعد ، ولا ناظرات لغير زوجها . أو معناه : إن طرف النظر لا يتجاوزها ، كقول التنبى :

وخصرٍ تثبت الأبصارُ فيه كأنَّ عليه من حدقٍ نطاقاً
 فالمراد : قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز لغيرهن . أو المعنى : شديداً بياض الطرف ، كما يقال : أحور الطرف وحوراؤه ، من قولهم : ثوب مقصور وحوارى .
 وجلى أن المعانى ههنا لا تتراحم لتحقيق مصداقها كلها . « لَمْ يَطْمِئْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ » أى لم يسهن . وأصله خروج الدم ، ولذلك يقال للحيض (طمث) ثم أطلق على جماع الأبكار ، لما فيه من خروج الدم . ثم عم كل جماع . وقد يقال : إن التعبير به للإشارة إلى أنها توجد بكرةً كلما جومت . ويستدل بالآية على أن الجن يطمئن ويدخلن الجنسة . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » أى فى الحسن والبهجة ، أوفى حمرة الوجفة والوجه ، أدبا وحياء « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

[٦١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٢] (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

[٦٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٤] (مُدْهَامَتَانِ)

- [٦٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٦٦] (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ)
 [٦٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٦٨] (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)
 [٦٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٠] (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)
 [٧١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٢] (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)
 [٧٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٤] (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ)
 [٧٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٦] (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ)
 [٧٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٨] (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

« هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ » أى فى العمل « إِلَّا الْإِحْسَانُ » أى فى الثواب ، وهو الجنة
 « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * » ومن دونيهما « أى دون تينك الجنةين المنوة بهما
 « جَنَّاتٍ » أى بستانان آخران . إشارة إلى وفرة الجنان واتصالها وسعة امتداد الطرف
 فى منظرها « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَاهَا مَتَّانٍ » أى خضراوان من الرى ،

تضربان إلى السواد من شدة الحضرة . أو من كثرة أشجارها الممتدة لآلى نهاية (فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ « أَيْ فَوَارَتَانِ بِالْمَاءِ » فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فُكْرُهُمَا وَنُحْلٌ وَرُمَانٌ » وإنما أفردهما بالذكر بياناً لفضلهما، كأنهما، لما لهما من المزية، جنسان آخران « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا خَبْرَاتٌ » جمع (خبرة) بالتشديد، إلا أنه خفف . وقد قرئ على الأصل . أى فضلات الأخلاق . وإيثار ضمير المؤنث على التثنية مراعاة للفظ المسند إليه بعده «حِسَانٌ» أى حسان الوجوه «فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ» الحور : جمع (حوراء) وهى البيضاء النقية . ومعنى (مَّقْصُورَاتٌ) قصرن أنفسهن على منازلهن ، لا يهمن إلا زيفتهن ولهوهن . وفيه الممانى المقدمة أيضاً . و (الْخِيَامِ) قال ابن جرير^(١) : يعنى بها البيوت . وقد يسمّى العرب هودج النساء خياماً ، ثم أنشده . « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِئْهُنَّ إِنْ سُئِلْنَ قَبْلَهُمْ وَلَا جِآنٌ » يعنى بهنَّ حورالجبنتين اللتين من دون الأولين . أو تكرير لما سبق ، للتنبؤ بهذا الوصف ، وكونه فى مقدمة المشتميات ، وطليعة الملذات : « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَكِدِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ » أى سرراً أو مسانداً أو وسائداً « خُضْرٌ وَعَبْقَرِيٌّ » أى طنافس وبُسُط « حِسَانٍ » أى جياذ . والصفة كاشفة ، ولذا قال ابن جبیر : (العبقرى) عتاق الزرابى ، أى جياذها . « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من إكرامه أهل طاعته منكم هذا الإكرام . « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ » أى ذى العظمة والكبرياء ، والتفضل بالآلاء و (الاسم) هنا كناية عن الذات العلية ، لأنه كثر اقتران الفعل المذكور معها ، كآية^(٢) (تَبَارَكَ الَّذِى جَمَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) ، وآية (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ونحوها . وسر إيثار الاسم

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦١] . (٣) [٦٧ / الملك / ١] .

التنبيه على أنه لا يُعرف منه تعالى إلا أسماءُ الحسنَى ، لاستحالة اكتفاء الذات المقدسة . فما عرف اللهَ إلا اللهُ . هذا هو التحقيق .

وقيل : لفظ (اسم) مقحم ، كقوله ^(١) :

* إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلامِ عليكممَّا *

وذهب ابن حزم إلى بقاء الاسم على حقيقة . وردّ من استدلّ بأن الاسم هو المسمى بما مثاله :

لا حجة فيما احتجوا به . أما قول الله عز وجل (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فحق . ومعنى (تَبَارَكَ) تفاعل من البركة ، والبركة واجبة لاسم الله عز وجل الذي هو كلمة مؤلفة من حروف الهجاء . ونحن نتبرك بالذكر له وبتعظيمه ونجّله ونسكّرمه ، فله التبارك وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا ، حينما كان من قرطاس ، أو في شيء منقوش فيه ، أو مذكور باللسنة . ومن لم يجلّ اسم الله عز وجل

(١) وعجزه : * وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً لَا كَمِلاً فَقَدْ اغْتَدَرَ *

وقائله لبيد بن ربيعة .

والشعر يقوله لبنتيه ، إذ قال :

تَمْنَى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وهل أنا إلا من ربيعةٍ أو مُضَرَ
ثم أمرهما بأمره ، فقال قبل بيت الشاهد :

فَقُومَا فَقُولَا بِالَّذِي قَدْ عَلِمَا وَلَا تَخْمِشَا وَجْهًا وَلَا تَحْلِقَا شَعْرُ
وقولا : هو المرء الذي لا خليله أضاع ، ولا خان الصديق ، ولا غدر

فقوله (إلى الحول) أى افعلا ذلك إلى أن يحول الحول . والحول : السنة كاملة بأسرها . وقوله (اعتذر) هنا بمعنى أعذر . أى بلغ أقصى الغاية في العذر .

(تفسير الطبري ، طبعة المعارف ، ج ١ ص ١١٩) (في الحاشية) .

كذلك ولا أكرمه ، فهو كافر بلا شك . فالآية على ظاهرها دون تأويل ، فبطل تعلقهم بها . انتهى كلامه رحمه الله .

فائدة

فيما قاله الأئمة في سر تكرير (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (١) .

قال السيوطي في (الإتيان) في بحث التكرير :

قد يكون التكرير غير تأكيد صناعة ، وإن كان مفيداً للتأكيد معنى . ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين ، فإن التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده .

ثم قال : وجعل منه قوله (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فإنها ، وإن تكررت نيماً وثلاثين مرة ، فكل واحدة تتعلق بما قبلها ، ولذلك زادت على ثلاثة ، ولو كان الجميع عائداً إلى شيء واحد لما زاد على ثلاثة ، لأن التأكيد لا يزيد عليها - قاله ابن عبد السلام وغيره - انتهى .

وفي (عروس الأفراح) : فإن قلت : إذا كان المراد بكل ما قبله فليس ذلك بإطناب ، بل هي ألفاظ كل ما أريد به غير ما أريد به الآخر .

قلت : إذا قلنا : العبرة بعموم اللفظ ، فكل واحد أريد به ما أريد بالآخر ، ولكن كرر ليكون نصاً فيما يليه ، ظاهراً في غيره .

فإن قلت : يلزم التأكيد ؟

قلت : والأمر كذلك ، ولا يرد عليه أن التأكيد لا يزيد به عن ثلاثة ، لأن ذاك في التأكيد الذي هو تابع . أما ذكر الشيء في مقامات متعددة أكثر من ثلاثة ، فلا يتنوع . انتهى .

وقال العز بن عبد السلام في آخر كتابه (الإشارة إلى الإيجاز) وأما قوله (فَبِأَيِّ

(١) راجع الجزء الأول صفحة ٢٥٧ من هذا الكتاب .

«الْآءِ رَبِّكُمْ أَتُكَذِّبَانِ» فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع بينها وبين التي قبلها من نعمة ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها ، وبالثالثة ما تقدم على الأولى والثانية وبالرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة ، وهكذا إلى آخر السورة .

فإن قيل : كيف يكون قوله (سَنَقْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ) نعمة ، وقوله (يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) نعمة ، وكذلك قوله (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) وقوله (يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ) وقوله (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ) .

قلنا : هذه كلها نعم جسام ، لأن الله هدّد العباد بها استصلاحاً لهم ، ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان إلى حيز الطاعة والإيمان ، والانقياد والإذعان . فإن من حذر من طريق الردى ، وبين مافيه من الأذى ، وحث على طريق السلامة ، الموصلة إلى المثوبة والكرامة ، كان منعماً غاية الإنعام ، ومحسناً غاية الإحسان . ومثل ذلك قوله ^(١) هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ) وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط ، بذكر صفة الرحمة في ذلك المقام . وأما قوله ^(٢) (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) فإنه تذكير بالموت والفناء ، للترغيب في الإقبال على العمل لدار البقاء ، وفي الإعراض عن دار الفناء . انتهى .

وقال البغوي : كررت هذه الآية في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة ، وتأكيذاً للتذكير بها . ثم عدد على الخلق آلاءه ، وفصل بين كل نعمتين بما نههم عليه ، ليفهمهم النعم ويقرّروهم بها . كقول الرجل لمن أحسن إليه ، وتابع إليه بالأيدى ، وهو ينكرها ويكفرها : ألم نكن فقيراً فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فمززتك ، أفتنكر هذا ؟ ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب . انتهى .

(١) [٣٦ / يس / ٥٢] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٦] .

وقال السيد مرتضى في (الدرر والغرر) : التكرار في سورة الرحمن ، إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكما ذكر نعمة أنعم بها ، ويّج على التكذيب ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك بأن خولتك في الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن فيه التكرير ، لاختلاف ما يقرر به ، وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم ، كقول مهلهل يرثي كليباً^(١) :

على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا ما ضيمَ جيرانُ المَجِيرِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا رجف العِضَاءُ من الدُّبُورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا خَرَجَتْ مُحَبَّاةُ الخُدُورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا ما أَعْلَمْتَ نَجْوَى الأمورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا خيفَ المَخُوفُ من الثُّغُورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	غداة تَلَاتِلَ الأمرُ الكبيرِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا ما خَارَ جَارُ المستجيرِ

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ، وهو من لطائف العرب ، فاعرفه .

وقال شيخ الإسلام في (متشابه القرآن) : ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم . ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، بعدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقبها ، لأن من جملة الآلاء ، رفع البلاء ، وتأخير العقاب . وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنة وأهلها ، بعدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها في الجنة اللتين هادون الجنة الأولين ، أخذاً من قوله (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) . فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة . انتهى .

اللهم زدنا اطلاعاً على لطائف قرآنك الكريم ، وغوصاً على لآلى فرقانك العظيم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الأول من أمالي المرتضى (طبعنا) .

تمّ الجزء الخامس عشر . ويليه ، إن شاء الله ، الجزء السادس عشر ، وفيه تفسير :

٥٦ - سورة الواقعة ، ٥٧ - سورة الحديد ، ٥٨ - سورة المجادلة ، ٥٩ - سورة الحشر ،
 ٦٠ - سورة المتحنة ، ٦١ - سورة الصف ، ٦٢ - سورة الجمعة ، ٦٣ - سورة المنافقين ،
 ٦٤ - سورة التغابن ، ٦٥ - سورة الطلاق ، ٦٦ - سورة التحريم ، ٦٧ - سورة الملك ،
 ٦٨ - سورة القلم ، ٦٩ - سورة الحاقة ، ٧٠ - سورة المعارج ، ٧١ - سورة نوح ،
 ٧٢ - سورة الجن ، ٧٣ - سورة المزمل ، ٧٤ - سورة المدثر ، ٧٥ - سورة القيامة .

فهرس السور المفسرة فى هذا الجزء

رقم الصفحة	رقم السورة واسمها
٥٣٢٦	٤٦ - سورة الأحقاف
٥٣٧١	٤٧ - سورة محمد ﷺ
٥٣٩٤	٤٨ - سورة الفتح
٥٤٣٧	٤٩ - سورة الحجرات
٥٤٨٠	٥٠ - سورة ق
٥٥١٩	٥١ - سورة الذاريات
٥٥٤٠	٥٢ - سورة الطور
٥٥٥٣	٥٣ - سورة النجم
٥٥٩١	٥٥ - سورة القمر
٥٦١٠	٥٥ - سورة الرحمن

رقم الإيداع بدارالكتب رقم ٤٢٤٠ / ١٩٧٠